إنجيل يهوذا بين الحملة الإعلاميّة والحقيقة العلميّة

د. دانيال عيّوش
جامعة البلمند

مقدّمة

في نيسان ٢٠٠٦، وسط حملة إعلاميّة كبيرة، بثّت الجمعيّة الوطنيّة الأميركيّة للجُغرافية (National Geographic) خبر العثور على نصّ دينيّ قبطيّ يرقى إلى القرن الثالث ميلاديّ كان مفقودًا، وهو ما سمّوه بـ "إنجيل يهوذا الإسخريوطيّ"؛ فقاموا بنشر ترجمته، وعرضوا على قناتهم التلفزيونيّة الخاصّة برنامجًا وثائقيًّا صوّروا فيه يهوذا وكأنّه التلميذ الأقرب إلى يسوع، الذي سلّمه بقبلة الصداقة إطاعةً لإرادة الناصريّ[1]. أدّى هذا الحدث إلى طرح أسئلة عدّة بما يخصّ المصداقيّة التاريخيّة للعهد الجديد، وقيمة التعليم المسيحيّ في الكنائس. فما هو أصل هذه الوثيقة؟ متى كُتبت وأين؟ ما هو مضمونها وتأثير مضمونها على المسيحيّين؟ في القسم الثاني من المقالة نعرض أبرز الأبحاث العلميّة التي أتت بعد فترة من الحملة الإعلاميّة، والتي حدّدت مكانة هذه الكتابة في تاريخ الأدب المسيحيّ القديم المنحول.

تمّ اكتشاف النسخة الوحيدة التي وصلت إلينا من "إنجيل يهوذا" في كهف بالقرب من مدينة المنيا المصريّة، في العقد السابع من القرن الماضي، واشتراها تاجر تحف وأثريّات من مدينة زوريخ السويسريّة في السنة ٢٠٠٠.

تحتوي هذه المخطوطة على واحدة وثلاثين صفحة موضوعة في اللغة القبطيّة، وهي لغة مصريّة مطعّمة باليونانيّة القديمة تعود إلى حقبة الأمبراطوريّة الرومانيّة. توصّل مؤخّرًا فريق من الباحثين، تحت إشراف البروفسور رودولف كاسر (Rodolph Kasser)، الأستاذ المتقاعد من جامعة جنيف والمختصّ باللغة القبطيّة، إلى ترميم المخطوطة وترجمة مضمونها. أعلن هؤلاء الباحثون، في شباط ٢٠٠٦، نتائجَ أعمالهم، وقالوا إنّ هذه المخطوطة تعود، على الأرجح، إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلاديّ، وذلك استنادًا إلى نتائج فحص الكاربون ١٤. ثمّة العديد من الوثائق القبطيّة القديمة التي تمّ العثور عليها في منطقة مصر، منها الوثائق التي دعيت **إنجيل توما**، و**إنجيل فيليبّس**، و**إنجيل المصريّين**، و**إنجيل مريم المجدليّة**، و**إنجيل الحقيقة**. تنتمي هذه "الأناجيل" إلى مكتبة نَجع حمّادي الشهيرة التي اكتُشفت في السنة ١٩٤٥، ونُشرت نصوصها في اللغات المعاصرة ابتداءً من السنة ١٩٧٨.

دُوّنت الوثائق القبطيّة المكتشفة حتّى يومنا هذا في جماعات غنوصيّة منتشرة بشكل خاصّ في مناطق مصر القديمة. يعود المصطلح "غنوصيّ" إلى الكلمة اليونانيّة "غنوسيس"، Gnosis، التي تعني بالعربيّة "المعرفة". كان الغنوصيّون يعتقدون بوجود مصدر سامٍ للخير اسمه العقل

(١) رج مقالتي في **جريدة النهار** (٢١ نيسان ٢٠٠٦، ص ٢١) التي أوضحت فيها الإشكاليّة الناتجة عن هذا الاكتشاف، ودرست المصداقيّة التاريخيّة للنظريّات المنتشرة في كلّ وسائل الإعلام، وعلى الخصوص في البرنامج الوثائقيّ الذي قدّمَته الجمعيّة.

الإلهيّ. يحمل كلّ إنسان في داخله شرارة من هذا العقل الإلهيّ، إلاّ أنّ العالم المادّيّ يمنعه من التعرّف إليها. لم يكتفِ الغنوصيّون باعتبار العالم الجسديّ والمادّيّ عالَمًا سُفليًّا، كما اعتقدت مجمل المدارس الفلسفيّة اليونانيّة آنذاك، بل شدّدوا أيضًا على أنّ هذا العالم شرّيرٌ، وكلّ ما يتّصل به هو شرّير أيضًا، كالجسد والزواج والجنس، بصرف النظر عن مسبِّب وجوده، سواء أكان إلهًا خالقًا، أم وسيطًا، أو شيطانًا [٢].

من أبرز الفروقات بين تعليم الغنوصيّة وتعليم المسيحيّة نظرتهم الخاصّة إلى مسألة أصل الشرّ في العالم. يعتقد المسيحيّون أنّ الله هو إله صالح، خلق عالمًا صالحًا وخيّرًا، وأنّ الإنسان استغلّ حرّيّته فأدخل الخطيئة والفساد إلى العالم، ما سبّب الألم والخلل في نظام الطبيعة. أمّا الغنوصيّون فقد نسبوا شرّ العالم إلى إله خالق قصد إيجاد عالم فاسد. لذلك توصّلوا، استنادًا إلى هذه المعتقدات، إلى تصوير بعض الشخصيّات الوارد اسمها في العهد القديم على أنّهم أبطال وقدوة رغم أعمالهم الشرّيرة. نذكر منهم قايين (الذي قتل أخاه هابيل) وعيسو (أخا يعقوب الكبير الذي تخلّى عن بكريّته مقابل صحن من العدس). وفي هذه الرؤية الغنوصيّة التي تُظهر رضى الخالق عن وجود الشرّ في العالم، تدخل تمامًا شخصيّة يهوذا ودوره المسيء إلى شخص يسوع الناصريّ. تفسِّر هذه الرؤية رفض الكنيسة الأولى لهذه التعاليم التي تتناقض مع الرؤية المسيحيّة للإنسان والخليقة. أمّا أيّة اعتبارات أخرى لتفسير هذا الرفض فهي من نسج خيال صاحبها، ربّما لغاية في نفسه.

كانت الجماعات الغنوصيّة ذات طابع نخبويّ، غير منفتحة على العالم، بل تقتصر على مجموعة من المبتدئين بتعليمهم. واعتبر الغنوصيّون أنفسهم مختارين ومتميّزين عن أي تجمّع دينيّ آخر. هذا هو السبب الرئيسيّ لبقاء نصوص الجماعات الغنوصيّة مكتومة. لا يمكننا توصيف الوثائق الغنوصيّة بوثائق مسيحيّة، إذ أنّها تعود إلى جماعات توفيقيّة (syncretistic) تجمع اعتقاداتها من ديانات عدّة، منها المسيحيّة واليهوديّة والديانات الرومانيّة والفلسفة اليونانيّة. منذ نشوء الغنوصيّة أظهر المسيحيّون رفضهم لوثائقها، وقالوا بعدم انسجامها مع الإيمان المسيحيّ. يندرج "إنجيل يهوذا" في هذه المجموعة من الوثائق التي لها قيمة تاريخيّة كبيرة لأنّها تساهم في معرفة الحركة الغنوصيّة، ولكنّها لا تشكّل أيّ خطر على الإيمان المسيحيّ كما تعلّمُه الكنيسة.

يتناغم مضمون "إنجيل يهوذا" مع الاعتقادات الغنوصيّة؛ يهوذا هو الوحيد الذي "يعرف"، وهو مَن يتسلّم من يسوع الأمر التالي: "سوف تقدّم الجسد البشريّ الذي أرتديه ذبيحةً". وبالفعل، يشير هذا النصّ الغنوصيّ إلى أنّ يسوع ليس إنسانًا حقيقيًّا، ولكنّه يلبس جسدًا بشريًّا، وبفضل يهوذا سيتحرّر منه. علاوة على ذلك، "يعرف" يهوذا أنّ البشريّة كلّها سترفضه على مدار القرون، باستثناء الغنوصيّين طبعًا لأنّهم يعرفونه ويعرفون مضمون إنجيله.

يذكر القدّيس إيريناوس أسقف ليون (†٢٠٠ الميلاديّ) وجود النزعة الغنوصيّة، وذلك في كتابه **ضدّ الهرطقات**، الذي يتطرّق فيه إلى بدعة القايينيّين. في الكتاب الأوّل، الفصل ٣١، يقول إيريناوس إنّ القايينيّين شدّدوا على "معرفة" يهوذا المميّزة، وعلى أنّه أتمّ رسالة سرّيّة عندما أسلم المسيح إلى السلطات اليهوديّة، وإنّ هذه المعلومات ترد في قصّة خرافيّة سمّاها أصحابها "إنجيل يهوذا". إلاّ أنّنا لا نقدر أن نجزم حتّى الآن أنّ "إنجيل يهوذا" الذي ذكره إيريناوس هو نفسه الذي نحن في صدد دراسته، لأنّه لا أحد يدري ما هو مصدره: هل هذه الوثيقة كتبت باليونانيّة وترجمت، أم إنّها وضعت باللغة القبطيّة؟

وفي مجال آخر، يهتمّ العلماء أن يحدّدوا مدى المصداقيّة التاريخيّة لرواية إنجيل يهوذا. إذا ما راجعنا

(٢) للتعمّق في الاعتقادات الغنوصيّة راجع مقالة الخورأسقف بولس الفغالي في هذا العدد.

الأناجيل القانونيّة نلاحظ عدم التوافق على السبب الذي دفع بيهوذا إلى تسليم يسوع. يروي متّى أنّ يهوذا سلّم يسوع من أجل المال (مت ٢٦: ١٤–١٥)، ولا يأتي مرقس على ذكر السبب (مر ١٤: ١٠–١١)، بينما لوقا ويوحنّا يؤكّدان أنّ الشيطان دخل فيه ودفعه إلى فعل التسليم (لو ٢٢: ٣؛ يو ١٣: ٢٧). علاوة على ذلك، لا نجد رواية موحّدة لطريقة موت يهوذا؛ فبحسب إنجيل متّى، يشنق يهوذا نفسه (مت ٢٧: ٥). ويذكر سفر أعمال الرسل أنّ يهوذا "وقع على رأسه منكبًّا وانشقّ من وسطه" (أع ١: ١٨). هذا الاختلاف في السرد الروائيّ يعود إلى أنّ العهد الجديد لا يهتمّ في وصف الأحداث كوقائع تاريخيّة مجرّدة، بمقدار ما **يفسّرها تفسيرًا لاهوتيًّا**. ولكن، إذا اعتمدنا مناهج علم التاريخ الحديث، يمكننا أن نستنتج أنّ القاسم المشترك في هذه الروايات يؤكّد أمرَين أساسيَّين: الأوّل أنّ يهوذا سلّم يسوع، والثاني أنّه إثرَ ذلك انفصل عن مجموعة الرسل الإثني عشر. وما يعزّز المصداقيّة التاريخيّة لهذين الأمرين هو بالضبط الاختلاف في تفاصيل الروايات الإنجيليّة حول يهوذا، لأنّ هذا الاختلاف يؤكّد شهادة موحّدة تنبع من تقاليد آتية من مصادر مختلفة، حسب مبدأ تعدّد الشهادات (multiple attest) الذي يعتمد عليه علم التاريخ. لا بدّ من أن نذكر أنّ كتّاب العهد الجديد يقدّمون قراءة للأحداث التاريخيّة من منظار إيمانيّ تتبلور في قراءة أسفار الكتاب المقدّس كافّة.

لا شكّ في أنّ البحث في نصوص "إنجيل يهوذا" سيساهم في فهم أفضل للنزعات الدينيّة والفلسفيّة داخل الإمبراطوريّة الرومانيّة التي عاصرت المسيحيّة. من جهة أخرى، لن تفيدنا هذه المخطوطة في التعرّف على شخص يهوذا التاريخيّ بطريقة أفضل، لكونها لا تعتمد وقائع تاريخيّة موثوقة، كما أنّها لا تؤثّر لا من قريب ولا من بعيد على جوهر الإيمان المسيحيّ كما تدّعي الدعاية الإعلانيّة للبرنامج.

أضواء جديدة

بعد عام من إعلان العثور على المخطوط، قامت العالمة أبريل ديكونيك (De Conick)، الأستاذة في الدراسات الكتابيّة في جامعة رايس في تكساس، بنشر دراسة تراجع ترجمة الجمعيّة للنصّ القبطيّ في كتاب اسمه **الرسول الثالث عشر. ماذا يقول إنجيل يهوذا حقًّا** (لندن، ٢٠٠٧). في عملها هذا وجدَت ديكونيك أنّ المعنى الفعليّ للكتاب المدعوّ "إنجيل يهوذا" يختلف تمامًا عمّا قيل حتّى الآن. بينما الترجمة الرسميّة للجمعيّة تدّعي بالتفسير القائل بأنّ يهوذا شخصيّة ترافق إيجابيًّا أعمال يسوع، لا بل هو يأخذ دور البطل في الرواية، تقترح ديكونيك قراءة جديدة ليس فيها يهوذا بطلاً فحسب، وإنّما أكثر من ذلك، هو بنفسه يأخذ دور الجِنّ أو الشيطان.

في هذا القسم من المقالة نفحص المقاربة الجديدة، ونشرح الأسباب اللغويّة واللاهوتيّة التي تؤيدها. لقد أصبح البحث عن إنجيل يهوذا أكثر دقّة وجودة، وذلك لأنّ مجموعة الباحثين التي يُسمح لها بالاطّلاع على المخطوط تزايدت وتنوعت. إلى الآن يصنّف العلماء إنجيل يهوذا بين الكتابات الغنوصيّة، التي رفضتها المسيحيّة الرسوليّة آنذاك، لكنّهم لم يتّفقوا بعد على علاقة يسوع بيهوذا في هذا الإنجيل الغريب.

المشاكل في الترجمة الرسميّة

تؤكّد ديكونيك أنّ العديد من خيارات المترجمين في الجمعيّة غريبة، ولا تليق بمسلّمات فنّ الترجمة للنصوص القديمة؛ فعلى سبيل المثال: عندما يقول يسوع ليهوذا في (٢١: ٤٤): "أنت **الشيطان** الثالث عشر"، فإنّ ترجمة الـ *NG* تقول: "أنت **الروح** الثالث عشر". وتؤكّد ديكونيك أنّ المصطلح القبطيّ *daimon* منقول حرفيًّا من المصطلح اليونانيّ نفسه، وأنّه، بالتالي، كان يجب أن يُترجَم بمعنى

"الجنّ" أو "الشيطان"؛ وتعرّب الترجمات العربيّة للعهد الجديد عادةً هذا المصطلح اليونانيّ بـ"شيطان" (رج مثلاً مر ١: ٣٤؛ لو ٤: ٤١؛ ١ كو ١٠: ٢٠). هذا يعني أنّ يسوع يدعو يهوذا حرفيًّا "شيطانًا". وقد وجدَت ديكونيك حوالى الخمسين استشهادًا لكلمة *daimon* في النصوص الغنوصيّة، وهي تشير دائمًا إلى الشياطين أو الجنّ، أي إلى تلك الكائنات الماكرة التي تعذّب الناس وتحاول تحريضهم على الفعل الرذيل، ضدّ ما شاء الله أن يفعلوه. وتعتقد ديكونيك أنّ هذا هو المدلول المُعطى ليهوذا في هذه الفقرة. وعلى كلّ حال، فإنّ بعض الدارسين يحذّر من الاستنتاجات المتسرّعة لمعنى هذه الكلمة، لأنّ في بعض الكتابات الأفلاطونيّة تأتي الكلمة *daimon* مرادفةً لكلمة "روح" (في اليونانيّة: *pneuma*؛ رج Lovegren).

هناك مقطع آخر مهمّ يختلف النقّاد على أبعاد مدلوله بخصوص العلاقة بين يهوذا وشعب الله المسمّى بـ "النسل المقدّس": "وعندما سمع ذلك قال يهوذا له (ليسوع): ما هو الخير الذي تسلّمتُه أنا، إذ أنّك أفرزتَني **من أجل** ذلك النسل؟" (٤٦: ١٧–١٨). ووفقًا لديكونيك، لم يُفرَز يهوذا **من أجل** النسل المقدّس، كما تقول ترجمة الجمعيّة، إنّما أُفرزَ **عن** الشعب المقدّس، أي أُبْعِدَ عن النسل المقدّس. هذا يعني أنّه لم يتقبّل أسرار الملكوت، مع أنّه كان من الممكن أن يدخل إليه لو سمع وأطاع للبشارة. يقول هذا المقطع إنّ يسوع شاركه في أسرار الإنجيل، إلاّ أنّ يهوذا لم يقبل. بكلام آخر، لم يعمل يهوذا عن جهل، بل عن عصيان؛ لذلك كلّ ما احتمله يهوذا من القصاص هو بسبب شرّه وعصيانه. ثم نستنتج أنّ الحوارات بين يسوع ويهوذا في هذا "الإنجيل" هي ليست بين صديقَين إنّما بين عدوَّين، وهي تطوّرُ تقليد الأناجيل الأربعة القانونيّة حيث يصارع يسوع الشيطان قبل أن يكابد الآلام (رج مت ٢٦: ٣٨–٣٩؛ مر ١٤: ٣٤–٣٥).

وتؤكّد ديكونيك أنّ الخطأ الأكثر فظاعةً الذي وجدته في ترجمة الجمعيّة هو حذف أداة النفي "لا" في جملة تحكي عن عدم صعود يهوذا إلى النسل المقدّس؛ فبحسب نسخة الجمعيّة، سيلعن المسيحيّون صعود يهوذا إلى حيث يمكث النسل المقدّس (٤٦: ١٨ – ٤٧: ١)، ولكن من الواضح أنّ النصّ القبطيّ الأصليّ يقول إنّ تلامذة الرسل سيلعنون يهوذا بسبب **عدم** صعوده (انتمائه) إلى ذاك النسل. تؤكّد ديكونيك أنّ الجمعيّة اعترفت بهذا الخطأ، وإن كان حدوث ذلك متأخرًا جدًّا لتغيير سوء الفهم الذي انتشر في الرأي العامّ (Gospel، ص ١٥).

هذه هي أبرز الملاحظات التي تقدّمها ديكونيك في ترجمتها الجديدة، وهي تظهر الصورة السلبيّة ليهوذا، الشيطان الذي لم يكن أبدًا جزءًا من النسل المقدّس.

يسوع والغنوصيّة

أمّا من جهّة المضمون، فيهوذا يأتي كعدوٍّ ليسوع، ويتّهم الرسل بعدم فعاليّة عملهم، ويناقش مع معلّمه يسوع دوره في الخيانة. تؤكّد ديكونيك أنّ صوت يسوع في هذا الكتاب هو صوت الغنوصيّين الذي يتحدّى المسيحيّين الرسوليّين أن يراجعوا صحّة إيمانهم، ويصغوا إلى عقلهم وذهنهم، وألاّ يقبلوا الإيمان قبولاً أعمى، مكتفين بالقول إنّه هكذا كان الإيمان الذي سلّمهم إيّاه الرسل الاثنا عشر.

انطلاقًا من هذه المقاربة الغنوصيّة تبرهن ديكونيك أنّ اللقب "الشيطان الثالث عشر" (٢١: ٤٤) يرتبط كلّ الارتباط بشخصيّة "الوسيط" (*demiourgos*)، وهو، في الغنوصيّة، إله العهد القديم الشرّير. ويا للسخريّة! يهوذا الشرّير يفهم يسوع أكثر من تلاميذه، كما هو الحال مع الشياطين في إنجيل مرقس (De Conick, *Apostle*, p. 103-108). هكذا ينتقد إنجيل يهوذا الأناجيل القانونيّة بشكل تهكّميّ، ويدافع عن الرؤية الكونيّة الخاصّة بالحركة الغنوصيّة.

إذًا، ماذا يقول إنجيل يهوذا فعلاً؟ بحسب ديكونيك، يقول إنّ يهوذا هو الشيطان المدعوّ "الثالث عشر" الذي في بعض التقاليد غنوصيّة هو ملك الشياطين، وله أيضًا الاسم "يلدَبَعُوث". هذا الكائن يعيش في العالم الثالث عشر فوق الأرض، ويهوذا هو نسخة بشريّة عنه، وأداتُه التي يتخبّأ وراءها في هذا العالم. يربط هؤلاء الغنوصيّون اسم "يلدبعوث" باسم إله العهد القديم، يهوه، أي الربّ، وينظرون إليه كإله غيور وساخط يعارض الإله الأسمى الذي جاء يسوع إلى الأرض ليكشف أسراره.

مهما كان اسم مؤلّف إنجيل يهوذا، فإنّه كان ناقدًا فظًّا للمسيحيّة الرسوليّة ولطقوسها. كان المؤلّف يعتقد أنّ يهوذا شخصٌ شرّير يعمل لأجل "يلدبعوث"، وأنّ تسليم يسوع إلى الموت هو خدمة للشياطين وليست للإله الأسمى، وهذا ما يناقض تمامًا اعتقاد المسيحيّين بأنّ لموت يسوع قيمة تكفيريّة تفتح الخلاص للخطأة ولكلّ البشر. بكلام آخر، يسجّل هذا الإنجيل موت يسوع هزيمةً للإله الأسمى وليس غلبةً للرحمة والغفران، كما يتذكّره المسيحيّون في الاحتفال الإفخارستيّ.

خاتمة

في الختام يجدر القول إنّ الجمعيّة الوطنيّة للجغرافية قامت بعمل شاقّ في ترميم أجزاء المخطوط الذي يحتوي على هذا الكتاب المنحول القديم والمتأذّي جدًّا من عدم اهتمام أصحابه بعد العثور عليه في السبعينات، حتّى أنّه وُضع بعض الوقت في ثلاّجة أحد التجّار. لذلك، بالحقيقة، كان العمل الترميميّ جبّارًا، واستطاعت الجمعيّة أن تقدّم خمسة وثمانين بالمئة من النصّ المكتوب تقريبًا.

وأمّا بالنسبة إلى معنى المضمون فيبقى يهوذا شخصيّةً مليئة بالغموض والتناقضات؛ ففي نظر المسيحيّين، إنّه الشخص الذي كان عنده كلّ شيء، ومع ذلك سلّم المعلّمَ للموت من أجل بعض النقود. وأمّا بالنسبة إلى اليهود، فهو الرجل الذي استُخدمت قصّته لاضطهادهم عبر التاريخ.

تقدّم دراسة ديكونيك هذه مساهمةً مركزيّة وإيجابيّة في تحديد مضمون إنجيل يهوذا، وتؤكّد أنّ الجمعيّة حاولت تأويل النصّ بحثًا عن اضطراب الرأي العامّ وعن اختلاق الحدث الإعلاميّ. نكتشف في هذا الكتاب الغنوصيّ أنّ يهوذا ليس أقرب أصدقاء يسوع ولا حتّى أمثل تلاميذه، إنّما هو التلميذ الثائر الذي لم يُمِل أذنَه إلاّ لاستماع كلمة الشرّ، ولم يعطِ لمعلّمه إلاّ قبلة الخيانة والغشّ.

المراجع

أبو الخير، عبد المسيح، **كتاب إنجيل يهوذا – هل يؤثر اكتشافه على المسيحيّة؟** القاهرة، ٢٠٠٧. في: http://st-takla.org

عيّوش، دانيال، "إنجيل يهوذا. استغلال الحقائق لاختلاق الحدث الإعلاميّ"، **جريدة النهار**، ٢١ نيسان ٢٠٠٦، ص ٢١. متوفّر أيضًا على إنترنت:

http://balamand.edu.lb/theology/Faculty%20Profiles/ayuch/The%20Gospel%2 of%20Judas%2 NAHAR.pdf

De CONICK A. D, *The Thirteenth Apostle: What the Gospel of Judas Really Says*. London: Continuum, 2007.

_____, "Gospel Truth". *New York Times* (Dec. 2007): 15.

FRANKFURTER D., "A Historian's View of the Gospel of Judas". *Near Eastern Archaeology* 70.3 (Sep. 2007): 174-177.

LOVGREN S., "Judas Was 'Demon' After All, New Gospel Reading Claims." For: National Geographic News (21 Dec. 2007). In: http://news.nationalgeographic.com/news/2007/12/071221-gospel-judas_2.html

National Geographic. "Press Release. Statement from National Geographic in Response to April De Conick's New York Times Op-Ed 'Gospel Truth' (Dec. 1, 2007)." In: http://press.nationalgeographic.com/pressroom/index.jsp?pageID=pressReleases_detail&siteID=1&cid=1196942552919